

[تقنية التناص في شعر عمر أبو ريشة]

إعداد الباحثان:

[أحمد عطاالله سليم عبدالعزيز]

[طالب دكتوراه لغة عربية/ أدب ونقد، جامعة السلطان زين العابدين_ ماليزيا]

[المشرف: أ.د السيد محمد سالم العوضي]

[أستاذ دكتور في جامعة السلطان زين العابدين_ ماليزيا]

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة التناص في شعر عمر أبي ريشة، وبيان مستويات توظيف هذه التقنية في قصائده، كما يهدف إلى إبراز أهم أشكال التناص التي عُني بها الشاعر، الذي أعطى التناص مساحة واسعة من شعره.

تتبع أهمية البحث في الكشف عن دلالات التناص بأشكاله المتنوعة في شعر أبي ريشة، وقد شكل التناص سمة أسلوبية بارزة في شعره، وعلامة مميزة في بناء نصه الشعري الذي يتكئ في تشكيل بنيته اللغوية إلى الموروث، الذي نصل به إلى أعماق الشاعر، ومعرفة ما يجول في نفسه، وما يحمله من معان ودلالات خفية.

يتناول هذا البحث موقف أبي ريشة من التناص، والدلالات الكامنة التي تُشير إليه وفق منهج وصفي تحليلي، واكتشفت خلال البحث أن الشاعر وظف التناص بأشكاله المختلفة في شعره بشكل كثيف جداً، خصوصاً التناص الديني والتاريخي، اللذان شكلا الجزء الأكبر من التناص في أعماله الشعرية، إضافة إلى الدلالات التي قصدها الشاعر من استخدامه للألفاظ والعبارات الدالة على التناص في قصائده.

الكلمات المفتاحية: التناص، عمر أبو ريشة، الأعمال الشعرية الكاملة.

مقدمة:

يشكل التناص في الشعر ظاهرة أسلوبية تستدعي العناية والتأمل، وقد احتلت الدراسات التي تتصل بالتناص حيزاً كبيراً في مجال البحث العلمي، ولاقت هذه الدراسات اهتماماً واسعاً من النقاد والباحثين في الغرب والشرق.

اتكثت في هذا البحث على منهج تتبع التناص بأشكاله المختلفة في نصوص أبي ريشة، وربطها بمصادرها، ومحاولة تحليل دلالتها الموضوعية والفنية، موظفاً المنهج التحليلي لتذوق النص الشعري، وإبراز أثره وروعته، والكشف عن أهم المؤثرات التي كونت شخصية الشاعر، وبالتناص يستطيع الأديب تفكيك النص وتركيبه، وهو أداة قوية لمقاربة النص الأدبي، ومعرفة بنيته العميقة، والغوص في أغواره واستكناه دلالاته.

مسألة البحث

بعد قراءة متعمقة لأعمال أبي ريشة، تبين للباحث أن تقنية التناص أخذت مساحة واسعة في قصائده، ولذلك أردتُ التركيز على هذه الظاهرة، والغوص في أعماقها؛ للوصول إلى الدلالات الخفية التي يحملها التناص في قصائده.

أسئلة الدراسة

سيحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. ما مدى توظيف التناص بأشكاله المتنوعة في شعر عمر أبو ريشة.
2. ما هي الأسباب التي دفعت الشاعر إلى استخدام كل نوع من أنواع التناص في تجربته الشعرية؟
3. ما هي الأغراض الدلالية التي قصدها أبو ريشة في توظيفه لكل نوع من أنواع التناص؟

فرضيات البحث

1. التناص له مكانة كبيرة وساطعة في شعر أبي ريشة؛ لكثرة الألفاظ الدالة عليه.
2. استلهم الشاعر للتناص يمكن أن يكون لنتائج مختلفة كالحزن أو الفرح أو التحسر أو التوجع، أو لأسباب أخرى لا بد أن تكشف في هذا البحث.
3. الدلالات التي قصدها الشاعر من أشكال التناص قد تكون إيجابية كالفرح والتفاؤل، وقد تكون سلبية كالموت والحزن والفراق.

مفهوم التناص:

التناص مصطلح نقدي حديث، ترجمة للمصطلح الفرنسي (intertext)، وكلمة (inter) تأتي في اللغة الفرنسية بمعنى: التبادل، بينما تشير كلمة (text) في الفرنسية إلى النص، وهي من اللاتينية (textus) وتعني النسيج (السعدني 1991: 73)، حيث تجمع الدراسات الحديثة أن ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) أول من أشار لمفهوم التناص، إلا أنه لم يوظفه، فظهر بشكل بارز عند البلغارية جوليا كريستيفا (Jolia Kristeva) لتصبح أول من استعمله في الستينات (كيوان، 1998: 15).

الملفت للنظر أن التناص أحدث حراكاً واسعاً في النقد الحديث، وأثار جدلاً بين المحدثين في تحديد ماهية هذا المصطلح، وثباتهم على صيغة موحدة له، وعرفت جوليا كريستيفا التناص بأنه "نصوص يتم صناعتها عبر امتصاص، وفي نفس الآن عبر هدم النصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصياً، فالنص الشعري ينتج داخل الحركة المعقدة لإثبات ونفي متزامنين لنص آخر". (كريستيفا، 1997: 97)

وأشار محمد مفتاح أن التناص هو "تعالق الدخول في علاقة نصوص مع نص حديث بكيفيات مختلفة". (مفتاح، 1992: 121)، ويرى رولان بارت أن التناص ظاهرة لغوية معقدة تعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته، وقدرته على الترجيح والاعتماد على مؤشرات النص (بارت، 2002: 29)، أما الناقد المغربي محمد بنيس فيرى أن النص "شبكة تلتقي فيها عدة نصوص، ومن ناحية ثانية، فالنص هو "إعادة كتابة وقراءة لنصوص أخرى لا محدودة، يمكن أن حول النص إلى صدى أو تعبير أو اجترار". (بنيس، 1985: 251-252)

وقد استعمل الناقد المغربي سعيد يقطين مصطلح "التفاعل النصي" في كتابه "انفتاح النص الروائي" كمرادف لمصطلح التناص، ويرى أن التناص واحد من أنواع التفاعل النصي. (يقطين، 2001: 92)

يمكنني القول من خلال الآراء والتعريفات السابقة لمصطلح التناص أن النقاد العرب استمدوا تعريفاتهم للتناص من خلال التعريفات الخاصة بالباحثين الغربيين، أمثال: جوليا كريستيفا، باختين، إضافة إلى ذلك، فقد بذلوا جهوداً جمة من أجل تطوير هذا المصطلح، وبيان أهميته في الكشف عن النصوص الغائبة.

صور التناص في شعر عمر أبو ريشة

تعددت أشكال التناص في شعر أبي ريشة، وقد تجلّى ذلك في دواوينه الشعرية، ولاحظ الباحث وجود التناص بصورة وأشكاله، فظهر التناص الديني (كالتناص القرآني، واستحضار الشخصيات الدينية)، والتناص التاريخي (تناص الشخصيات والأمكنة التاريخية)، والتناص الأسطوري (أسطورة شيفا، أسطورة ليدا وغيرها من الأساطير)، وبرع أبو ريشة في توظيفها، وأكسبت تجربته الشعرية، ورفعت من البناء الفني في شعره.

1 . التناص الديني

شكّل القرآن الكريم مكوناً معرفياً مهماً لفكر الشاعر الحديث، انطلق من خلاله إلى رؤية العالم، فالنص القرآني نص مقدس صالح لكل زمان ومكان، والأديب البارع يستطيع الإفادة منه، وتشكيل رؤاه الشعرية عبر المفردات والمعاني والأفكار التي تتسرب إلى بني النص المعاصر، وترسيخها بما يخدم الأفكار المطروحة في النص، وقد برزت ثقافة أبي ريشة بشكل واضح في أعماله الشعرية، خاصة تأثره بالقرآن الكريم، والشخصيات الدينية التي مازالت خالدة إلى يومنا هذا، ومن ذلك قوله في قصيدة "حني الدين الحنيف الرأس حزناً": (أبو ريشة، 2005: 313)

وَمَا الْإِسْلَامُ إِلَّا جِسْرٌ فَضِّلْ يَسِيرُ عَلَى ثَرَاهِ الْعَابِرُونَ

وَمَا الْإِسْلَامُ إِلَّا بَرْقٌ هَدِي وَقَطْرَةٌ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

يرثي أبو ريشة في هذه القصيدة مفتي لبنان الشيخ الداعية "مصطفى نجا"، مستخدماً أسلوب الاستثناء في هذين البيتين؛ ليؤكد من خلال هذا النفي فضل الدين على البشر والمجتمع، ويلاحظ أن الشاعر استعمل التناص مع قوله عز وجل في سورة آل عمران: "إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران، الآية 18)، ومن خلال هذا التناص يؤكد الشاعر أهمية الإسلام.

وفي موضع آخر، يصرح أبو ريشة في شعره بفكرة عدم تمسكه بالحياة الدنيا، وأن الموت لا مفر منه، فيظهر في كثير من قصائده مُسَلِّمًا لإرادة الله تعالى ولقضائه، فيجهز نفسه لاستقبال هذا الموت بالحسنات وفعل الخير، معتمداً في ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: "كل نفس ذائقة الموت" (آل عمران، الآية 12)؛ إذ يقول في قصيدة "فدائي": (أبو ريشة، 2005: 59)

أَأْمِضِي وَيُدْهِلُنِي طُلَابِي عَيِّي، وَعَنْ دُنْيَا شَبَابِي

بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَوْتِ مِيعَادُ أَحْتُ لَهُ رُكَايِي

ويؤكد المعنى ذاته من خلال تكراره في قصيدة "محمد" بقوله: (أبو ريشة، 2005: 376)

كُلُّ حَيٍّ رَهَنَ الْفَنَاءِ وَتَبَقَّى
أَيُّهُ اللَّهُ فَوْقَ طَوَقِ الْفَنَاءِ

شكل التناسق القرآني في شعر أبي ريشة مساحة واسعة، يثري من خلاله تجربته الشعرية، وتنوعت استلهاحات الشاعر للقرآن الكريم، فقد تكون تستوحي مضمون الآية أو فكرتها، وأخرى تستدعي بعض المفردات والتراكيب القرآنية كما تحدثت عنها في الأمثلة السابقة، ومن التوظيفات التي استلهمها أبو ريشة ما ورد في قصيدة "البرعم الأخضر" في قوله: (أبو ريشة، 2005: 266)

هُوَ يَتَكِّ فِي غَصَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى جُرْعَةٍ مِنْ فَمِ الْكُوْثَرِ!

يتبين أن الشاعر استعمل لفظة (الكوثر) الواردة في سورة الكوثر في قوله تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" (الكوثر، الآية 1)، ويصف الشاعر في هذا البيت فتاة أعجبتة، وشبه شوقه لها كشوق المؤمنين للشرب من ماء الكوثر في جنة الخلد.

وبرز شكل من أشكال التناسق الديني لدى أبي ريشة، وهو استحضار الشخصيات الدينية، وأهم هذه الشخصيات شخصية رسولنا الكريم محمد (ص)، رمز النقاء والصفاء، وقد وظفه كغيره من عموم الشعراء الذين استخدموا هذا الرمز، شاملاً للإنسان العربي، سواء في انتصاره أو عذابه (طاقة، 1969: 41)، ومثال ذلك ما جاء في قصيدة "أنا في مكة" المكتنزة بالإشارات الدينية وأسماء الأنبياء، فأتى باستحضار رمز النبي "محمد"؛ ليزيد من الدفق الشعوري لهذه القصيدة السردية بقوة دينية روحانية يستمدّها من رمزية النبي محمد إلى النقاء والصفاء، يقول: (أبو ريشة، 2005: 92)

أَحْمَدُ يَكْرَهُ الْجَرَّاحَ، وَإِنْ سَالَتْ
بَادِرَانِ كُلِّ ذَا عِصَالٍ
جِبْلَةُ الْخُبِّ قَلْبُهُ، كُلُّ نَبْضٍ
فِيهِ تَسْبِيحُ مُكْرَمَاتٍ عَوَالِي
لَمْ يُبَارِكْ حَدَّ الصَّوَارِمِ إِلَّا
بَعْدَمَا الْبَغْيُ صَالَ كُلَّ مُصَالٍ

ليس الهاجس الديني وحده من حرك الدفق الشعوري في هذه القصيدة، إنما الهم العربي أيضاً كان يشغل بال الشاعر نتيجة خوفه على مصير الأمة العربية، فلجأ إلى رمز النقاء الذي لمع به ذكر النبي محمد (ص).

وفي قصيدة حملت عنوان اسم نبينا الكريم "محمد" يقول أبو ريشة: (أبو ريشة، 2005: 368-369)

فَبِكِّي أَحْمَدُ، وَمَا كَانَ مِنْ يَبْكِي
وَلَكِنَّهَا دُمُوعُ الْآبَاءِ
فَلَوَّى جَيْدَهُ وَسَارَ وَئِيدًا
ثَابَتَ الْعَزْمِ مُثْقَلُ الْأَعْبَاءِ
وَأَتَى طَوْدَهُ الْمُوَشَّحَ بِالنُّورِ
وَأَغْفَى فِي ظِلِّ غَارٍ حِرَاءِ

رمز الشاعر بالنبي محمد (ص) في الأبيات إلى النقاء والصفاء، واستثمر من شخصية الرسول ما ينسجم مع رؤيته؛ إذ ظل مصير الأمة العربية همًا لم يفارقه، فاستعان برمز الصفاء والنقاء (محمد).

واستحضر أبو ريشة شخصية سيدنا "عيسى" عليه السلام، وقصته مع الكفرة الذين كانوا يريدون قتله، ورمز الشاعر به إلى النقاء والخلاص من الشر؛ إذ يركز في قصيدة "الصليب الأحمر" على ما كان يُعانيه سيدنا عيسى مع جماعة الأَشقياء المثقلين بالآثام، الرافضين الاعتراف بالله عز وجل، وبالرغم من كل الآلام والمصاعب التي لا تحملها جبال بقي صامداً، حتى أضحت تلك الخشبة التي عُذّب عليها رمزاً لـ (جمعية الصليب الأحمر) التي تعد أهم جمعية خيرية تُعنى بالإنسان في العالم، فيقول: (أبو ريشة، 2005: 389)

عيسى ! طَلَعْتَ عَلَى الْوُجُودِ وَلَيْسَ فِي
آفَاقِهِ إِلَّا الشَّقَاءُ الْأَكْدَرُ
تَجْرِي الْخَطِيئَةُ فِي مَلَاعِبِ لَهْوِهِ
وَالصَّنْجُ خَلْفَ رِكَابِهَا وَالْمِزْهَرُ
وَمُعَقَّرِينَ جِبَاهَهُمْ فِي رَجْسِهَا
صَبُّوا عَلَى صَوْتِ النُّبُوَّةِ وَاجْتَرُّوا

يشير أبو ريشة في هذه الأبيات إلى ما عاناه سيدنا عيسى من ظلم وقهر وآلام من تلك الجماعة التي لا تعرف إلا الحقد والكراهية، غير أن سيدنا تحمّل عذابهم، وأراد الشاعر من توظيفه لهذا الرمز الديني أن يبين للمتلقى مدى العناء الذي واجهه عيسى عليه السلام؛ من أجل بلوغ الغاية التي كان يحرص على بلوغها، فظل يعاني سيدنا في أبيات القصيدة حتى اختتم الشاعر قصيدته بلوحة ملؤها الأمل والصفاء في قوله: (أبو ريشة، 2005: 390)

سِرِّ يَا صَلِيبَ الْحُبِّ إِنَّكَ حَامِلٌ
أَمَلًا يَرِفُ وَذِمَّةً لَا تُخْفَرُ
دَمْعُ الْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى مَا هُمِي
إِلَّا لِيَمْسَحَهُ الْحَنَانُ الْخَيْرُ
فِي كُلِّ جُرْحٍ قَدْ لَفَقْتَ ضَمَادَهُ
تَغَرَّ يَسْبَحُ أَوْ لِسَانُ يَشْكُرُ

يؤكد أبو ريشة أن سيدنا عيسى قد بثَّ الأمل والتفاؤل في البشرية جمعاء، وأن كل جرح استنزفه يقابله دعاء له وشكر على تضحيته للخلاص من الشر.

يُلاحظ مما سبق أن شعر أبي ريشة حفل بالتناس مع القرآن الكريم ومفرداته ومضامين القصص القرآنية؛ مما أعطى بعداً روحياً لمعانيه وقناعة بأفكاره، ولجأ أبو ريشة إلى ظاهرة التناس الديني لتحقيق بلاغة القول وتماسك الصورة الشعرية والفنية لديه.

2 . التناس التاريخي

يشكل الموروث مصدراً من أهم مصادر الإبداع، وأبرز مكوناتها من مكونات ثقافة الشاعر؛ إذ لا هروب من الرجوع إلى المرويات التاريخية، والشاعر يتميز عن غيره بالذائقة الفنية التي تجعله قادراً على تحويل التاريخ من حقائق إلى تشكيل فني يعبر الشاعر من خلاله "تعبيراً فنياً يتناول كل مفردات الواقع ليس بمنطق الواقع وإنما بمنطق الفن؛ لأن الفنان الذي ينقل الواقع نقلاً حرفياً يمسح هذا الواقع المنقول، ويمسح الفن الناقل؛ لأن الواقع الموضوع حين ذاك يكون أبلغ في التعبير عن نفسه، وأروع في الدلالة على مفرداته وظواهره ومجالاته، لأن الفن يستحيل حين ذاك إلى محاكاة ساذجة مسطحة تحذف دوره الفاعل في حركة الكون وحركة التاريخ". (العزب، 1978: 156)

والتناص التاريخي عند أبي ريشة تكون عبر وجهين:

_ تناص الشخصيات التاريخية

_ تناص الأمكنة التاريخية

وقد حاول أبو ريشة عبر وجهي التناص السابقين ربط الموروث الثقافي بواقعه، وهذا النوع من التناص (التاريخي) يُضفي على النصوص شيئاً من العراقة والرفعة والسمو، بعيداً عن الغموض والتعقيد.

استلهم أبو ريشة في قصائده شخصيات تاريخية هامة، مثل: (خالد بن الوليد، صلاح الدين الأيوبي، الحجاج) وغيرها الكثير من الشخصيات، فيقول في قصيدة بعنوان "خالد": (أبو ريشة، 2005: 391)

لَا تَنَاقِي يَا رَوَايَاتِ الزَّمَانِ فَهُوَ لَوْلَاكِ مَوْجَةٌ مِنْ دُخَانِ

تَتَوَالِي عُصُورُهُ وَبَهَا مِنْكَ ظِلَالُ طَرِيَّةِ الْأَلْوَانِ

أَبَدًا تَبَسَّمُ الْحَيَاةُ عَلَيْهَا بَسْمَةُ الْمُظْمَنِّ لِلْحَدَثَانِ

أَسْمِعِينِي خَفِيفَ أَجْنِحَةِ الْإِلَهَامِ مِنْ أَفْقِكَ الْقَصِيَّ الدَّانِي

وَأَنْثُرِي حَوْلِي الْأَسَاطِيرَ فَالْرُوحُ عَلَى شَبِّهِ غَصَّةِ الظَّمَانِ

يظهر التناص بشكل جلي منذ العنوان، وتمحورت القصيدة حول شخصية خالد بن الوليد، هذا الفارس البطل الشجاع، الذي لمع اسمه وحضوره في المعارك والحروب -قبل إسلامه وبعده- وتشير الأبيات إلى التحول الذي طرأ على شخصية خالد؛ إذ يصور الشاعر من خلاله (خالد بن الوليد) التحول الذي أصاب الأمة العربية بعدما كانت القوة الضاربة والمسيطرة، إلا أنها باتت ضعيفة متفرقة، فنقّس الشاعر وعبر عما يعتصر في داخله من خلال استحضاره لهذه الشخصية؛ ليحدث الأمل والتفاؤل في تحول قد يحدث للأمة بمستقبل زاهر مشرق.

"إن استدعاء الشخصيات التراثية يستدعي بعث الماضي في الحاضر، وتكثيف الزمن الممتد في لحظة الإبداع، كما أنه يصل الأجيال الراهنة بجذورها السابقة". (مشوح، 2007: 22)

وقد استحضر أبو ريشة الماضي لخدمة الحاضر كباعث ودافع، ويظهر ذلك في قصيدته "مع المعري" بقوله: (أبو ريشة، 2005: 353-357)

يَا أَخَا الْحِكْمَةِ السَّنِيَّةَ هَلْ مِنْكَ التِّفَاتُ إِلَى صَدَى نَجْوَانَا

قُلْ لِيَتْلِكَ الْحَمَائِمَ الْبَيْضَ طِيرِي فَالْخَطَايَا تَدْفَقْتُ طَوْفَانَا

أَأَنَاجِيكَ يَا نَجِيَّ الدَّرَارِي وَأُغْنِيكَ أُغْنِيَاتِي الْحِسَانَا

إِنَّ آفَاقَكَ الْبَعِيدَةَ لَا تُطْلِقُ لِلخَاطِرِ الْحَبِيسِ عَنَانَا

حَسْبُكَ الْمَجْدُ أَنْ تَرَى كُلَّ يَوْمٍ لِأُغَانِيكَ عِنْدَهُ مَهْرَجَانَا

عمد أبو ريشة إلى توسيع الذات الفردية وتحويلها إلى الذات الجماعية، كما عمد إلى استنطاق الأحداث التاريخية المرتبطة بشخصية أبي العلاء المعري؛ ليجسد فكرة الصراع الذي يظل فيه الشاعر طرفاً مظلوماً (مثل أبي العلاء)، ويلاحظ من خلال شعر أبي ريشة إحساسه العميق بالمظلومين، والغبن الظاهر في كيان أمته.

واستدعى أبو ريشة شخصية البطل "صلاح الدين الأيوبي" طالباً منه التوجه بالعرب نحو القدس؛ لتحريرها مرة ثانية، وهزم العدو الصهيوني، فاستحضر الشاعر هذه الشخصية؛ ليبث روح القوة والجهاد واستنهاض همم أبناء الأمة، كيف لا وهو من فتح القدس في أول مرة، ومن خلال مفردات الأبيات يظهر الشاعر حزناً متألماً لما آلت إليه أمتنا العربية بعد اعتداء العدو الصهيوني على فلسطين، وسلب حقوق أبنائها، فليس بيده حيلة ولا قوة إلا أن يتمنى وجود البطل صلاح الدين الأيوبي ليحرر القدس من دنس العدو الصهيوني.

وشغل المكان اهتماماً ملحوظاً عند الشعراء، ومنهم أبو ريشة الذي أعطى المكان حيزاً واسعاً في تجربته الشعرية، فلم يكن المكان عنده مجرد مساحة جغرافية على خريطة، أو ظاهرة طبيعية يصف معالمها، بل كان عنصراً له وجوده وفاعليته، فوظفه بما يتناسب مع رؤيته الشعرية.

والقارئ لشعر أبي ريشة يلاحظ أنه حشد فيه أعداداً من الأمكنة التي تعطي النص الشعري دلالات مكثفة، ومن هذه الأمكنة التي استحضرها أبو ريشة: مكة المكرمة، دمشق، بيروت، المدينة المنورة، وغيرها من الأماكن، وخير مثال على هذا ما وصفه الشاعر في قصيدته "أنا في مكة" لهجرة الرسول (ص) إلى المدينة المنورة، وشبهها (المدينة المنورة) بالفجر الجديد في سمائها، في قوله: (أبو ريشة، 2005: 90)

وَقَفُّوا دُونَهُ حَيَارَى وَهُمْ أَدْرَى
بِوَقَفَاتِ سَيِّدِ الْأَبْطَالِ

فَأَنْتَنُوا هَارِيَيْنِ وَأَنْتَلَقْتَ يَثْرَبَ
مَرْهُوَةً بَيَوْمِ الْوَصَالِ

وَأَفَاقَتْ عَلَى صَبَاحٍ جَدِيدٍ
مِلْءُ آفَاقِهِ أَذَانُ بِلَالٍ

واستحضر أبو ريشة "مكة" في قصيدة "من ناداني" التي يقول فيها: (أبو ريشة، 2005: 79)

وَتَجَلَّتْ إِلَيَّ مَكَّةُ فِي أَكْرَمِ
مَجْلَى وَفِي أَجَلٍ كَيَانِ

خَلَّتْ الْكَعْبَةُ الْوَضِيئَةَ مِمَّا
نَشَرْتَهُ الْأَهْوَاءُ مِنْ بُهْتَانِ

وَأَنْجَلْتُ عَنْ سَمَائِهَا غَيْمَةَ الشَّرِّ
وَمَاجَتْ أَرْجَاؤُهَا بِالْأَذَانِ

رسم الشاعر في هذا المقطع مشهداً اكتسى بأسمى المعاني والمفردات التي دارت حول انتصار المسلمين بحكمة الرسول الكريم (ص) على قريش، ويلاحظ اهتمام الشاعر بالمكان الديني واستحضره عبر معنى سام يتناسب مع عظمتة وقدسيته.

ودائماً ما يستحضر أبو ريشة في قصائده كل ما يخدم تجربته الشعرية، وقد استحضر مدينة "حلب" التي أبدع في وصفها، وذكرها في أكثر من موطن، وفي قصيدة بعنوان "عروس المجد" ذكرها الشاعر بشكل غير مباشر، ولم يصرح باسمها (حلب) وإنما كناها بـ (عروس المجد) طالباً منها أن تفتخر وتتبختر بنصر السوريين وفرحتهم بجلاء الاستعمار الفرنسي عن أرضهم؛ إذ يقول: (أبو ريشة، 2005: 329)

يَا عَرُوسَ الْمَجْدِ، تِيهِي وَاسْحِي
لَنْ تَرِي حَفْنَةً رَمَلٍ فَوْقَهَا
دَرَجَ الْبَغْيِ عَلَيْهَا حُقْبَةً
وَهَوَى دُونَ بُلُوغِ الْأَرْبِ
لَا يَمُوتُ الْحَقُّ، مَهْمَا لَطَمْتُ
عَارِضِيهِ قَبْضَةً الْمُغْتَصِبِ
فِي مَعَانِينَا ذُبُولَ الشُّهْبِ
لَمْ تُعْطَرْ بِدَمَا حَرَّ أَبِي

يستحضر أبو ريشة الأماكن العربية؛ ليظهر اعتزازه وانتماءه لها، لأنه فرد من أفرادها، يفتخر بعروبته والأمجاد السالفة، وحلب هي العروبة والأصالة، ويفتخر الشاعر بأبنائها، مشيدا ببطولاتهم، مفتخرا بتحرير حلب من الفرنسيين، واستعان الشاعر بوسائل فنية من أجل إيصال معانيه، مثل اعتماده النمط السردى الذي تجلّى باستعمال الأسلوب الخبري، والتركيز على الأفعال الماضية.

وأهدى أبو ريشة في ختام قصيدته (عروس المجد) شعرا لوطنه الحبيب (سوريا) قائلا: (أبو ريشة، 2005: 336)

لِبِلَادِي وَلِرَوَادِ السَّنَا
كُلَّ مَا أَلْهَمْتَنِي مِنْ أَدَبٍ

يرى أبو ريشة أن شعره أجمل هدية يقدمها لوطنه؛ كونه أحد أفراده الذين حملوا همومه وآلامه، مستنهضا همم أبنائه للحفاظ على تراثه وأمجادهم.

ومن الأمكنة التاريخية التي استحضرها أبو ريشة في شعره "بغداد"، مكان التاريخ والعراقة، وكثاها بـ (ابنة الأساطير) في قصيدته "عوادي الزمان" التي نظمها في رثاء الملك غازي، يقول فيها: (أبو ريشة، 2005: 140)

مَا وَعَاهَا النَّخِيلُ حَتَّى سَرَى فِي
دَجَلَةٍ وَالْفُرَاتِ رَجْعُ تَنَادٍ
فَأَفَاقَتْ بَغْدَادُ بِنْتَ الْأَسَاطِيرِ
وَمَاجَتْ بِكِبْرِيَاءِ الْحِدَادِ
تَخْنُقُ الزَّفَرَةَ الْعَنِيدَةَ فِي الصَّدْرِ
وَتَجْرِي مَعَ الْحَجَى بِاتِّدَادٍ

يتبين من خلال الألفاظ الواردة في الأبيات الحزن المسيطر على نفسية الشاعر؛ إذ صور بغداد التي كثاها بـ (بنت الأساطير)، وكأنه يلبسها ثوبا أسودا؛ دلالة الحزن الذي يسود في أرجائها، عندما أفأقت على نبأ رحيل الملك (غازي)، ويُقاسم الشاعر حزنه مع أهله في بغداد، كأنه أحد أبنائها؛ ليؤكد عروبته بمختلف بلادها وحدودها.

3. التناسل الأسطوري

"تنبع أهمية توظيف الأسطورة والرموز الأسطورية في القصيدة الحديثة من كون الرمز يشكل صورة حسية، مولدة للمعنى ومسكونة به، ويكشف استدعاء الأسطورة عن قيمة الوظيفة الدلالية والجمالية التي يحققها الرمز في سياق النص الشعري". (نجم، 2009: 113)

غالبا ما كان استخدام أبي ريشة للأساطير يعبر عن هموم الاجتماعية والوطنية والإنسانية التي عاشها، والشاعر الذي يستلهم الأسطورة في قصيدة هو شاعر موسوعي الثقافة، يمتلك مخزونا كبيرا من المعرفة والثقافة والتراث العالمي؛ ليتمكن عبر هذا المخزون من تحويل الأسطورة إلى إشعاع يرفد القصيدة بضوء معرفي ينير به طريق القارئ

نحو الهدف المُراد، وعمر أبو ريشة من الشعراء الذين يحملون صفة (الشاعر الموسوعي)؛ إذ يمتلك من الثقافة ما يمكنه من استخدام الأسطورة كعنصر بنائي لقصيدته.

ومن الأساطير التي استلهما أبو ريشة في قصائده: أسطورة شيفا، وأسطورة ليدا، وأسطورة جان دارك، وأسطورة العنقاء، وغيرها من الأساطير المشهورة.

وفي قصيدة "معبد كاجوراو" أشار أبو ريشة إلى قصة الإله الأسطوري (شيفا)، وهو إله رئيسي في هندوسية "يرمز إلى القوة ويستوي عنده الخير والشر، ويطلق عليه الهندوس المدمر؛ لأنه يدمر العالم دورياً، ليعيد خلقه من جديد، ومنظره (شيفا) مفزع مخيف". (مجموعة من المؤلفين، 1999: 308)

وفي خضم أبيات القصيدة يصف الشاعر المنظر المفزع المخيف لهذا الإله، حينما رأى منحوتة في معبد كاجوراو، تجتمع حول هذا الإله الفتيات الجميلات إلا واحدة لم يعطها اهتماماً، وتضع يديها على ثديها؛ محاولة إثارة اهتمامه وإغراءه نحوها، إذ يقول: (أبو ريشة، 2005: 110-111)

وَبَنَاتٍ لَدَاتٍ مُطَرَّحَةً عِنَاقًا وَاحْتِضَانًا

وَأَكْفُ "شيفاً" سِتَّتَانِ عَلَى حَوَاشِيهَا اللَّدَانِ

حَيْرَان.. مِنْ أَيْ الْكُنُوزِ- يَلُمُ حَبَّاتِ الْجُمَانِ !!

وَتُلَوِّحُ إِحْدَاهُنَّ ذَاهِلَةً مَرُوعَةً الْجَنَانِ

وَكَأَنَّهَا شَعَرَتْ بِنَهْدِيهَا أَرَادَا يَشْرُدَانِ

فَلَهَا عَلَى طَوْقَيْهِمَا كَفَّانٍ لَا تَتَرَحَّرَحَانِ

اكتفى الشاعر في وصف تمثال "شيفا" كجزء من المعبد الذي زاره؛ مما يشير إلى اطلاع أبي ريشة على تراث الشعب الهندي بدياناته وأساطيره، وتحدث عن صورة الإنسان في حالاته المختلفة، بين سموه ورفعته وتدانيه، وقد "استقى أبو ريشة من التماثيل داخل المعبد مادته؛ لإثراء رؤيته الشعرية، ويوظف الإله "شيفا" توظيفاً أسطورياً يُعمق الدلالة؛ حيث يمثل هذا الإله القوة التي تؤدي إلى إنهاء الكون أو الدمار". (الحبيصة، 2010: 103)

وعند الانتقال إلى قصيدة "جان دارك" يُلاحظ أن الشاعر وضع عنوان القصيدة باسم الأسطورة؛ ليظهر أهميتها وقيمتها، ونظم هذه القصيدة أثناء تجواله في معرض اللوفر بباريس، ورأى صورة لفتاة فائقة الجمال على صهوة جواد أسود، فاستغرب عندما علم أنها "جان دارك" وراح يتأملها قائلاً: (أبو ريشة، 2005: 146-149)

الْفَجْرُ أَوْمًا، وَالبَتُولُ يَحْلُمُهَا الْمَعْسُولُ نَشْوَى

حَتَّى إِذَا أَطْيَافُهُ نَفَرَتْ مِنَ الْأَجْفَانِ عَدْوًا

أَخَذَتْ تَمْطِي وَالْفُتُورَ يَهْرُهَا عَضُّوا فَعَضُّوا

فَإِذَا الْبَتُولُ عَلَى جَوَادٍ مِثْلَ جِلْدِ اللَّيْلِ فَاحِمٍ

وَأَمَامَهَا عِلْمُ الْبِلَادِ مُمَوِّجُ الْجَنَبَاتِ بِاسْمِ

يجمع الشاعر في أبياته بين جمال الحقيقة وجمال الأسطورة التي تُدهش الناظر إليها وتثير مشاعره، وكانت الأبيات عبارة عن لوحة فنية تصف جمال هذه الفتاة البتول وسحرها، فأخذت تتمطى وغطاؤها ينزاح عن صدرها وتلهو بشعرها.

وفي ختام القصيدة، أشار أبو ريشة إلى وقوع جان دارك في الأسر ومحاكمتها، وحرقتها بالنار، واللافت للنظر أن الشاعر أبدع في تصويرها عندما أُلقيت في النار، وذهبت روحها إلى بارئها، فائزة تصلي للصليب، فيحنو عليها بابتسامة الحبيب، في قوله: (أبو ريشة، 2005: 151-152)

هَوَتْ الْبَتُولُ الْمُسْتَمِيَّةُ	فِي يَدِ الْأَعْدَاءِ غَدْرًا
فَطَعَتْ سَخَائِمَهُمْ كَمَا	لَوْ فِي الْهَشِيمِ قَذَفَتْ جَمْرًا
وَرَمَوْا بِهَا وَتَجَمَّعُوا	مِنْ حَوْلِهَا تَيْهًا وَكِبْرًا
فَتَجَلَّدَتْ وَيَدُ اللَّظَى	تَرْمِي بِمِئْزَرِهَا فَتَعْرِى
أَخَذَتْ تُصَعِّدُ رُوحَهَا	تَارَةً وَتَخِرُّ طَوْرًا
فَبَدَتْ تُصَلِّي لِلصَّلِيبِ	صَلَاةً فَائِزَةً طَرُوبَهُ
فَإِذَا بِهِ يَحْنُو عَلَيْهَا	بِابْتِسَامَتِهِ الْحَبِيبَةِ !!

نجح أبو ريشة من خلال هذه القصة في توظيفها بأفكار أسطورية؛ مما يعمق دلالة رؤيته الشعرية، وغالبا ما يعتمد الشاعر إلى شخصيات بطولية، يأمل منها أن تكون في وطنه، فجاء استدعاء هذه القصة ليعبر بها عن تجربته الشعرية. والمتأمل في قصيدة "جان دارك" يرى التحول الذي أجراه الشاعر في شخصية جان دارك في بداية القصيدة، التي صورها بفتاة مليئة بالشهوات إلى بطلة تاريخية، ينو من خلال هذا التحول أن تتحول أمته العربية من واقعها المؤلم إلى واقع ومستقبل مشرق.

وفي قصيدة أخرى، وضع أبو ريشة عنوان القصيدة أيضا باسم أسطورة أخرى هي أسطورة "ليدا"، وليدا هي ملكة أراد الشاعر أن يوظف قصتها في قصيدته؛ مبرزا عنصر التشويق، وتحدث في قصيدته عن إصرار لقاء حبيبته الممتنعة عن حبه، و(ليدا) ملكة "أسبارطة" التي "أحبها كبير الآله زيوس، وحاولت التخلص منه، متخذة أشكالا مختلفة، هائمة على وجهها في اليابسة حينا وفوق السطح" (البلعبي، 1990: 1052)، وهي ذاتها حبيبة الشاعر التي تحاول بكافة الطرق الابتعاد عنه، يقول: (أبو ريشة، 2005: 142)

مَرَّغِي جَفْنَيْكَ بِالْحِلْمِ وَغِيْبِي	وَتَنَاسِي وَخَشَةَ الْعُمَرِ الْجَدِيدِ
وَأَهْضُرِي مَا شِئْتَ مِنْ أَجْنِحَةٍ	تَشْتَهِي الْمَوْتَ عَلَى وَهْجِ اللَّهْيَبِ
كِبْرِيَاءُ الْفِتْنَةِ الْبِكْرِ أَبْتُ	أَنْ تَرَى خَمْرَكَ فِي كَاسِ حَبِيبِ
يَا ابْنَةَ الْأَحْلَامِ لَا تَسْتَقْبِلِي	مَضْرَعَ النَّشْوَةِ بِالطَّرْفِ الْكَنِيبِ

يَكْتَفِي الزَّنْبُقُ فِي صَحْرَائِهِ بِنَدَى الْفَجْرِ وَأَنْسَامِ الْمَغِيبِ

قاد الشاعرُ القارئَ منذ العنوان نحو التشويق والفضول، وفتح أمامه باب الخيال، وهي وظيفة استلهاه الأساطير؛ إذ جمع بين (ليدا وزيوس) و (ليدا وأبو ريشة)؛ ليثبت أن الاستلهاه قد وُظف بشكل محكم؛ خدمة للغاية الفنية في قصيدته، ومن خلال استلهاهه بعضاً من أحداث هذه الحكاية الأسطورية للملكة (ليدا) دعم أبو ريشة نصّه بعنصر بنائي غني.

ومن خلال ما سبق يُلاحظ أن أبا ريشة من خلال استلهاهه لهذه الأساطير بدى شاعراً مكتنزاً بتراث الشعوب وقصصها وأحداثها، واحتلت الأسطورة مكاناً ومصدراً هاماً في شعره، وكانت وسيلة لتوسيع إطار خيال الشاعر، تساعد في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وعواطفه المتغلغلة في نفسه، وهذا يدل على نضوجه الفكري العميق وسعة ثقافته.

نتائج الدراسة

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن مواطن التناس في شعر عمر أبو ريشة، وبيان قيمتها الفنية والجمالية، ومن خلال التحليل والنقد خلص الباحث إلى النتائج الآتية:

- ظهرت شخصية أبي ريشة في مجال التناس الديني بشكل جلي، وتجلت شخصيته الدينية من خلال اطلاعه الواسع وغزارة استشهاديه بآيات القرآن الكريم، وقصص الأنبياء وعلوم الحديث الشريف.
- برز الإبداع في شعر أبي ريشة من خلال كثرة التلميحات، وذكره للشخصيات الدينية والتاريخية ذات البعد الديني، إذ رسم من خلالها أجمل اللوحات الفنية التي تجعل القارئ أو المتلقي متأثراً ومندهشاً.
- خلط أبو ريشة في قصيدته الواحدة أنواعاً من التناس؛ ليثبت من خلالها قدرته الشعرية، وانفتاح نصّه الشعري على المرجعيات الثقافية والمعرفية لإغناء تجربته الشعرية.
- تنوعت دلالات التناس الديني والتاريخي ممثلة بالشخصيات والأحداث التاريخية والدينية التي وظفها أبو ريشة، مثل: شخصية النبي محمد (ص)، وشخصية خالد بن الوليد، ووسع من قدرتها الدلالية تبعاً لرؤيته وخيالاته، وركز في معظم استدعاءاته لهدف بعث الأمة العربية من سباتها واستنهاض عزائمها وقواها.
- في مجال التناس الأسطوري سيطرت الرموز الدالة على الخلاص والانبعث في دلالات المعاناة والتمرد، وبرزت هذه الرموز (شيفا/ جان دارك/ ليدا) للكشف عن الفساد، وظهرت دلالات الألم والمعاناة في بعضها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أبوريشة، عمر، الأعمال الشعرية الكاملة، م1، ط1، بيروت، دار العودة، 2005م.

أبوريشة، عمر، الأعمال الشعرية الكاملة، م2، ط1، بيروت، دار العودة، 2005م.

بارت، رولان، لذة النص، ط2، باريس، دار الشجرة للنشر والتوزيع، 2002م.

البلعبي، منير، موسوعة المورد العربية، م2، ط1، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م.

بنيس، محمد، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب "مقاربة بنيوية تكوينية"، د.ط، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1985م.

الحبيصة، محمد، البناء الفني في شعر عمر أبو ريشة، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، الأردن، 2010م.

السعدني، مصطفى، التناس الشعرية، د.ط، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف، 1991م.

طاقة، شاذل، ديوان الأعور الدجال والغرباء، بيروت، مكتبة الحياة، 1969م.

العزب، محمد، ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، د.ط، بيروت، دار المعارف، 1978م.

كريستيفا، جوليا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط2، المغرب، دار توبقال، 1997م.

كيوان، عبد المعطي، التناس القرآني في شعر أمل دنقل، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1998م.

مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج4، ط2، الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999م.

مشوّح، وليد، تجليات التاريخ في شعر أبو ريشة، مجلة الحياة، تونس، ع185، 2007م.

مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناس)، ط3، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1992م.

نجم، مفيد، التناس الأسطوري في شعر محمود درويش، مجلة نزوى، سلطنة عُمان، ع59، 2009م.

يقطين، سعيد، انفتاح النص الروائي "النص والسياق"، ط2، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2010م.